من تراب (٣٦٢) طه حسين وقادة الفكر(*) الطريق

نحو منتصف القرن الماضى ، قدم الدكتور طه حسين كتابه المعروف : «قادة الفكر» .. قد يبدو من عنوانه أنه ترجمة لحياة بعض قادة الإنسانية ، ولكنه فى الحقيقة ترجمة لفكرهم وخلاصة اتجاهاتهم وإنتاجهم .. أو هو تاريخ للعقل الإنسانى وما اعترضه من ضروب التطور وألوان الاستحالة والرقى حتى انتهى إلى حيث هو الآن .. أمَّا لماذا آثر عميد الأدب العربى هذا النهج ، فلأنه يرى أن الفكر والآداب ـ ومهما كانت قدرة وعظمة روّادها ـ ظواهر اجتماعية أكثر منها ظواهر فردية ، بمعنى أنها أثرٌ من آثار الجماعة والبيئة أكثر منها أثرًا من آثار الفرد الذى رآها وأذاعها !.

يضم كتاب الدكتور طه حسين ترجمة الفكر والعقل من خلال تعرضه لقادته ورواده .. هوميروس .. سقراط .. أفلاطون .. أرسطاطاليس .. اسكندر المقدونى .. يوليوس قيصر .. ثم مبحث بعنوان «بين عصرين» ، وآخر بعنوان : «العصر الحديث» ..

هوميروس صاحب «الإلياذة» و«الأوديسة» ، هل هو شخص واحد، أم هو ـ فيما اتجه إليه جانب من المؤرخين والباحثين ـ جملة أشخاص كتبوا تباعًا هذه الأشعار والروائع ، وأضافوا إليها جيلا بعد جيل ؟!!

(*) المال٢٣/ ١١/ ٢٠٠٩

سؤال يطرحه الدكتور طه حسين فى مستهل حديثه عن هوميروس ، ولا يُخْفى أنه أميل إلى الرأى القائل بأن هذا التراث اليونانى العظيم من الأشعار والأناشيد إنما هو نتاج قرائح جملة شعراء ـ بما فى ذلك الإلياذة والأوديسة .. ولكنه لا يقف كثيرا عند هذه النقطة ، وإنما يتجاوزها إلى ما هو أجدى عنده .. فيغوص متأملا فى تاريخ اليونان ، يستجلى فكرها فى هذه الحقبة التى قدمت للإنسانية كلها بذور حضارتها .. فيلاحظ أن اليونان والعرب يتشابهان فى أن حياتهما كانت تقوم على الشِّعْر فى بداوتهما وأول عهدهما بالحضارة .. ولأن الشعر هو أول مظهر من مظاهر الحياة الاجتماعية القوية لهاتين الأمتين ، فإننا نستطيع أن نقول بغير حرج إنه كان أيضا أول مظهر من مظاهر الحياة الاجتماعية القومية لكل الأمم المتحضرة التى عرفها التاريخ ..

بديهىٌّ إذن أن يكون الشعراء هم قادة الفكر فى هذه الأمم فى ذلك الأوان ، وقد كانوا .. تأثروا وأثروا فى جيلهم وفى الأجيال التى خلفتهم .. منهم من ذكرتهم الإنسانية ، ومنهم من نسيتهم .. ولكنها بعد أن عاشت آثارهم عصورا طوالاً ـ عادت تذكرهم وتبحث عنهم ... فما مكان هوميروس بين هؤلاء ؟!

إنه لا شك فى مكان الصدارة بهذا الإنتاج الذى توارثته الأجيال جيلًا بعد جيل .. ولكن مَنْ هو ؟. هل هو شخص أم أشخاص ؟!. لقد نقل المؤرخون والباحثون صورًا شتى ، منها ما يسلم به ، ومنها ما ينكره ـ كشخص واحد ـ إنكارا تامًا .. ولكن لاسبيل إلى إنكار: «الإلياذة»

و«الأوديسة» .. وفيهما أكبر دلالة على قيادة الشعر والشعراء للفكر الإنسانى فى ذلك الأوان ..

و .. سقراط .. هل كانِ هو همزة الوصل فى انتقال ريادة الفكر من الشعراء إلى الفلاسفة ؟.. إن الريادة ـ لا تنتقل بين يوم وليلة .. وإنما هى نتاج حقب وربما قرون .. ومع ذلك فقد كان سقراط أول شجرةٍ سامقةٍ تبدو على أغصانها هذه النقلة من عالم الشعر والخيال إلى عالم الفلسفة التدبر والتفكير .. قبل عصره كان وجه الحياة على أرض اليونان قد أخذ يتغير إلى معالم أخرى وضوابط مغايرة صنعها الاستقرار بعد الترحال ، والحضارة بعد البداوة ، والحرب والتطاحن بعد الأمن والسلام والطمأنينة .. وفى عصره ـ عصر سقراط ـ كان الشك قد وصل إلى مرحلة لم يعرفها العقل اليونانى من قبل .. شكٌ فى كل شىء حتى أصبحت فلسفة السوفسطائيين ـ الذين يبررون لكل شىء ـ هى مرأة العصر .. فى هذا الجو نشأ سقراط ، وظهر بكل ما فيه من فكر عميق ورغبة عارمة فى المعرفة .. لم يدع فى تسآله شيئا ، ولم يترك فى محاوراته أحدًا .. وخالف عَمَّنْ سبقوه بأنه لم يلتزم مكانا لدروسه ولا موضوعاً لها ، ولا اتخذها وسيلةً لكسب المال .. شعاره : «اعرف نفسك بنفسك» ، وهى عنده فلسفة تنحصر فى شيئين : أولهما : أن الإنسان بجهله بنفسه فى جميع العصور المتقدمة قد تلمس العلم فى خارجه .. فى الأرض أو السماء .. وثانيهما : أن الفلسفة ينبغى أن تقوم على معرفة النفس والإحاطة بها .. ففيها أساس كل شىء .. لقد وَضَعَ سقراط بذلك أساس علم النفس وعلم الأخلاق .. وَجَعَلَ

السعادة غرض فلسفته وغايتها ، وأبان أن محور الحياة الذى عنه صدرت وإليه تنتهى ـ هو «الخير» .. طريُقُه لذلك هو أسلوب الحوار والتوليد الذى تميز به وأورثه تلاميذه والمدارس التى أخذت عنه .. أبقاها وأبعدها أثرًا وأعظمها حظًّا هى تلك التى قدمت للفكر الإنسانى والفلسفى رجلَيْن من أعظم قادة الفكر هما : «أفلاطون» و «أرسطو» .

كان لفلسفة سقراط ومأساة محاكمته وإعدامه أثرٌ وأى أثر فى نفس وفكر تلميذه الوفى أفلاطون .. ولكنه مع ذلك خالف فى فلسفته عن سقراط نفسه ، كما خالف عمن سبقوه ولحقوه .. فقد اتخذ الكون والإنسان جميعًا موضوعًا لمباحثه الفلسفية ، ثم لم يتخذهما موضوعًا لبحث فلسفى خاص ، وإنما حاول شيئًا جديدًا ، هو درس هذه المذاهب الفلسفية الكثيرة المختلفة ، وموازنتها ، واستخلاص ما فيها جميعًا من خير ، وإقامة فلسفة جديدة من جهة وقديمة من جهة أخرى .. وَوفَّق فى ذلك توفيقًا عظيمًا أعانته فيه مواهبه العديدة من أدب وشعر وخيال . وفلسفة وعلم واسع .. وكما كان الحوار والتوليد أسلوب أستاذه سقراط ، كانا أيضًا أسلوب أفلاطون ومنهجه فى البحث والتفكير ..

الوجود عنده ثلاث درجات : الأولى درجة الموجودات المحسوسة التى تلامسها وهى لا ثَبَات لها ولا استقرار . والثانية هى الواسطة بين المحسوسات وبين الدرجة الثالثة .. هذه الدرجة الثانية تمثل الصورة الذهنية والحقائق الثابتة الخالدة التى لا ينالها التغيير ، ولا تعرض لها الاستحالة ، والتى تؤثر ولا تتأثر .. يسميها أفلاطون بالأفكار والمثل ، والعلم بها هو الفلسفة حقًّا وهو اليقين حقًّا ...

الفلسفة فى غايتها الكبرى عنده ينبغى أن تستهدف استجلاء «فكرة الخير» التى هى مصدر السعادة .. ولأن الفيلسوف يدرك الخير ـ بتأمله ـ ويراه ، فإنه أسعد الناس .. وفى تفسير ذلك يوضح أفلاطون أن النفس مزاجٌ يتألف من قوى ثلاث : القوة العاقلة التى تتفهم الأشياء وتدركها ، والقوة الغضبية التى قد نسميها الشجاعة ، والقوة الشهوية التى تعنى بوجود الجسم المادى .. الأولى مستقرها الرأس ، والثانية الصدر ، والثالثة البطن ... مثلها جميعا كمثل عربة يقودها جوادان : أحدهما الغضب والآخر الشهوة وسائقها هو العقل ..

على هذا التقسيم قسم أفلاطون ـ المجتمع أيضا إلى الحكومة التى تضاهى عنده القوة العاقلة ويستحقها الفلاسفة ، وفئة المنتجين من عمال وزراع ، وفئة المقاتلين التى تقابل القوة الغضبية فى النفس البشرية ... ومن هذا المنطلق أقام جمهوريته الشهيرة أو المدينة الفاضلة ...

من عباءة طه حسين ـ خرجت قامات عالية سطرت حياتنا الأدبية والثقافية لعشرات السنين .. المخيف أن الخمول أصاب حياتنا الأدبية والثقافية بعد رحيلهم ، ولم يعد بالساحة إلاّ جزر متفرقة صنعت نفسها بجهود ذاتية شاقة ، لأن حضّانات الكبار التى كانت توالى المواهب الواعدة انقرضت فى زماننا ، وصار الانكفاء على الذات هو سمة الأغلبية ، ومع تراجع هذه الجهود والكتابات الرفيعة الجادة ، أخلت الساحة للضجيج والتفاهة .. لا نملك إزاءها إلاّ أن نعود من وقت لآخر إلى أعمال هذا العقد الفريد الذى ملأ حياتنا فكرًا وأدبا وتنويرا قرابة قرن من الزمان !